الفصل الأول

قبيلة الحمر عبر التاريخ

المبحث الأول: موطن قبيلة الحمر

نسبها وفروعها:

تقع منطقة الحمر غرب ولاية كردفان الكبرى وتقريباً بين خطي عرض ١١-١٤ شمالاً وخطي طول ٢٧-٢٩ شرقاً[١]، حيث تُحدُّ من الشمال بمنطقة بارا وسودري وتتاخم جنوباً حزام قبيلة المسيرية قرب بلدة الفولة. وتمتدُّ في اتجاه الجنوب الشرقي على مقربة من جبال النوبة ومن الشرق تنتهي حدودها غرب بلدة أم صميمة بدار البديرية، وتحيط بها من الغرب ولاية دار فور.[٢] وهنالك قبائل عربية نزحت من سالف العهد إلى هذه المنطقة واندمجت مع قطّانها من الحمر معايشةً ومصاهرةً لتشكل كيان (دار حمر) الذي يفوق سعته مساحة بعض دول أوربا. والحمر هم من أقوى قطّان البادية في كردفان وهم من رعاء الإبل والشاء، ولديهم أشهر فصائل الضأن.[٣] وكان جُلّ الحمر في الماضي من الأبالة، يضربون في الفلوات. سعياً وراء الكلأ والماء، إلا أنّ كثيراً منهم ركن إلى حياة الاستقرار في قرى متباعدة، وامتهنوا زراعة الغلال والحبوب الزيتية وجني صمغ أشجار الهشاب.[٤] وقبيل انتهاء فصل الأمطار يشرعون في زراعة البطيخ الصحراوي الذي يزهو شتاءً. وبما أنّ بيئة الحمر تعاني من شح الماء إلا أن في كثير من أنحائها يجنى ثمر البطيخ الذي يُستعاض به في إطفاء الظمأ وتغذية السوائم طوال فصل الصيف .[٥] وتباع حبوبه الدقيقة فتدرّ ربحاً طيباً للفلاحين. وأيضاً تُسحق في الدُّور وتُصفى وتغلى في النار حتى يكون لها قوام كالأرز ، وتشكل وجبة مغذية. وينبت في موطن الحمر دوح التبلدي العظام. وكما يقول المثل: إنّ الحاجة تفتق الحيلة ، فقد درج الحمر وسكان كردفان على اختزان الماء في التجويف الطبيعي لهذا الشجر متى يسحُّ الودق، وذلك للاستعانة به عندما تنضب المناهل وتمحل الأرض. وذكر المؤرخ نعوم شقير أنهم يستفيدون من ريعه ببيعه للمسافرين العابرين.[٦] ومن حكم المولى عز وجل، أنّ الماء

---

[١] محمد سعيد نصر وآخرون: أطلس العالم، مكتبة لبنان، القاهرة، ص٣٠-٣١.

[٢] المرجع نفسه، ص٣٠-٣١.

[٣] نعوم شقير (١٩٦٧): جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص٧٢.

[٤] يوسف أبو قرون: قبائل السودان الكبرى، المطبعة الحكومية، الخرطوم، ص١٠٦.

[٥] المرجع نفسه، ص١٠٦.

[٦] جغرافية وتاريخ السودان، مرجع سابق، ص٧٥.

المـــختزن فـي جوف التبلدي يظل قُراحاً غير آسن ولو بقي سنين عددا وذلك لإحاطة أنسجة الجذع الذي يغذي تلك الشجرة الدفواء[١] بهذا الماء المختزن. وثمر شجرة التبلدي علاج ناجع لداء المعدة. وتقطف أوراقه الغضة من الأفنان وتعجن بجريش الحبوب الزيتية مضافاً إليه التوابل فتكون طعاماً لذيذ المذاق. وأحياناً تطهى هذه الأوراق ويصنع منها إدام شهي. ويفتل اللحاء سَلَباً ويُتَخذُ أربطةً للِرحال والدواب وتنسج منه السُّرر والأرائك لتكون وثيرة.

السَّلَبُ في اللغة: لحاء شجر معروف باليمن تعمل منه الحبال.[٢] أطلقه أهل كردفان على الحبال عينها. وجاء في اللسان في حديث ابن عمر: أن سعيد بن جبير دخل عليه، وهو متوسط مرفقة أدم، حشوها ليف أو سَلَب، بالتحريك[٢].

وبيئة الحمر تقع في في نطاق السافنا الفقيرة وتنتشر فيها الحشائش الموسمية والأشجار الشوكية والنفضية أي التي تنثر أوراقها في فصل الجفاف– ويطلقون على أكثرها أسماءها العربية المعروفة مثل السّدر والسرح والقفل والسّلم والعرد والسّيال والسَّمر والطّلح والمرخ والحميض وهو مصغّر الحمض.

وحاضرة حمر هي مدينة النهود[٣] وأشهر مراكزهم الإدارية والتجارية: غبيش وأبو زبد والخوي والأضية وود بندة وصقع الجمل وخمّاس والدم جمد وفوجا وأم قرناً جاك وعيال بخيت وبهذه البلدات أسواق دورية يؤمها البدو والحضر لبيع الماشية والغلال وتبادل السلع المختلفة وقضاء حوائجهم من الأسواق.

ولمعرفة نسب الحمر وأصولهم، لا بد من قراءة متأنية لتاريخ السودان الحديث لاستجلاء الأمر، فمن المعلوم أن علاقة السودان بالعرب قد توطدت بعد انتشار الإسلام. وتدفقت موجات القبائل العربية المهاجرة بعد سقوط دولتي المقرة وعلوة في السودان الأوسط. ومن هذه المجموعات المهاجرة فبيلة جهينة التي ينتسب إليها الحمر والبقارة. وواصل بعضها المسير مع حوض النيل، واتجهت مجموعة منها صوب سهول كردفان ودار فور حيث التقت بموجة أخرى من جهينة وفدت من شمال أفريقيا[٤].

---

[١] الدفواء: العظيمة، ابن منظور، جمال الدين محمد (١٩٩٧م): لسان العرب، ج٥، دار صادر، بيروت، لبنان، ص٣٨٨، "مادة دفو".

[٢] المرجع نفسه، ج٧، ص٢٢٥. "مادة سلب"

[٢] المرجع نفسه

[٣] أطلس العالم، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.

[٤] ضرار، ضرار صالح: هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل، ط٢، مكتبة التوبة، الرياض، السعودية، ص٣٠٦.

وأورد بعض المؤرخين أنّ الحَمَر من الحميريين. كما أنّ الحمر ينتمون بصلة القرابة إلى الحُمران بمنطقة ود الحليو بمحافظة كسلا على نهر سيتيت. ومن ضروب التوافق أن ود الحليو أيضاً اسم لوادٍ أغَن له فيض ثجاج على مشارف مدينة النهود حاضرة قبيلة الحمر.[١] وينتسب الحمر إلى جدهم مالك بن عبد الله الأحمر الجهنيّ.[٢] وقد يكون هذا القول راجحاً لأنني سمعتهم يرددون أحياناً عبارة (ذريتنا مالك).

والحمر فرعان: عساكر ودقاقيم.[٣] والعساكر نسبة إلى جدهم عسكر. وهذا العلم شائع لدى العرب، إذ عرفت كثيراً منهم يتسمون بهذا الاسم خلال إقامتي في جزيرتهم زهاء عقدين من الزمان. ومن هؤلاء تلميذي (علي عسكر) المهندس بشركة آرامكو السعودية.[٤] ومن الأعلام المكانية بهذا الاسم، (بئر عسكر)، وهو ثغر مهم في البلاد السعودية على حافة هضبة الحجاز ويتاخم اليمن. ومن هذه الأسماء عسكر أبي جعفر[٥] وهي قرية قرب البصرة، سميت باسم بانيها الذي ينتسب إلى العباس بن عبد المطلب.

والعسكرة في اللغة: هي الشدة. قال الشاعر طرفة:

ظلَّ في عَسْكرةٍ من حُبِّها ونأتْ شَحْطَ مزار المُدّكِر[٦]

وعسكر الليل: تراكم ظلامه. قال ابن الإعرابي: عسكرُ الرجل تعني جماعته وماله ونعمه.[٧]

أمّا الدقاقيم فينتسبون إلى جدهم دقيم. والكلمة في مضمونها اللغوي، صفة لمن كُسرت أسنانه الأمامية أي الأهتم[٨].

يروي بعض زعماء الحمر بأنّ أسلافهم قد ولجوا أرض السودان من شمال أفريقيا واستقروا في كبكابية وكتم وجبل حريز بدار فور. وكان على رأس القبيلة شيخان هما:

حمد أبوتابر وسالم تريشو وقد حاول حمد أن يبحث عن مرعى خصيب، فاتجه شرقاً نحو

---

[١] قبائل السودان الكبرى، مرجع سابق، ص٩٣-١٠٦.

[٢] مقابلة: الشيخ/ جبير لبن، قرية الوكيل، شمال دار حمر، ٢٠٠٤/٤/١٩م.

[٣] قبائل السودان الكبرى، مرجع سابق، ص١٠٦.

[٤] في بلدة نجران، ١٩٩٨م.

[٥] ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، بيروت، لبنان، ص١٣٨.

[٦] طرفة بن العبد البكري (١٩٦١): ديوان طرفة، دار صادر، بيروت، لبنان، ص٥٢.

[٧] امعجم البلدان، ج٤، مرجع سابق، ص١٣٨.

[٨] مجد الدين الفيروز أبادي (١٩٣٣م): القاموس المحيط، ط٣، المطبعة المصرية، القاهرة.

كردفان وضرب في تيه سحيق حتى كاد يهلكه الظمأ مع قومه. ويعرف هذا الحدث بـ (هيفة أبو تابر) وأحياناً يضرب به المثل في أحاديثهم.[١]

وحرب القرطاس مع المعاليا تشير إلى حلول الحمر في ربوع دار فور. ثم انتقالهم نحو الشرق بسبب المناكفات والمضايقات التي بدرت لهم من سلاطين الفور. وكذلك إذا تمعنّا في أقوالهم البسيطة، نلتمس ما يدلّ على استقرارهم في دار فور أولاً. فمثلاً نجدهم يعلقون على إيقاعات نحاس ناظرهم منعم كأنّها تردد عبارة (الطويشة دار جدك)، والطويشة بلدة في الغرب قطن فيها الحمر زمناً طويلاً ثم تفرقوا في بقاع كردفان وعمروها. ويعضّد رأيي هذا ما ذكره الإداري الإنجليزي هندرسون في مذكراته بأنّ الحمر كانوا في دار فور أولاً ثم ارتحلوا إلى الطويشة ونزحوا إلى كردفان في الفترة ما بين ١٧٧٩-١٧٩٦م[٢]. ومن فرعي العساكر والدقاقيم تشعبت بطون عديدة للحمر كما هو موضح في الجدول التالي[٣]:

---

[١] مقابلة: الشيخ جبير لبن (٩٨ عاماً): قرية الوكيل بدار حمر شمال عيال بخيت، بحضور الباحث دوليب محمود دوليب مقدّم برنامج تراثيات بإذاعة شمال كردفان في يوم الإثنين ٢٠٠٤/١٢/١٩م

[٢] Henderson,H.A. (1935): Sudan Govt. Memoranda No2. A note in the History of the Hamar tribe of western Kordofan.P20.

[٣] مقابلة: الدكتور فضل عبد الهادي حمد: أستاذ مساعد بجامعة غرب كردفان، ٢٠٠٥/٦/٢٢م.

قبيلة حَمَر

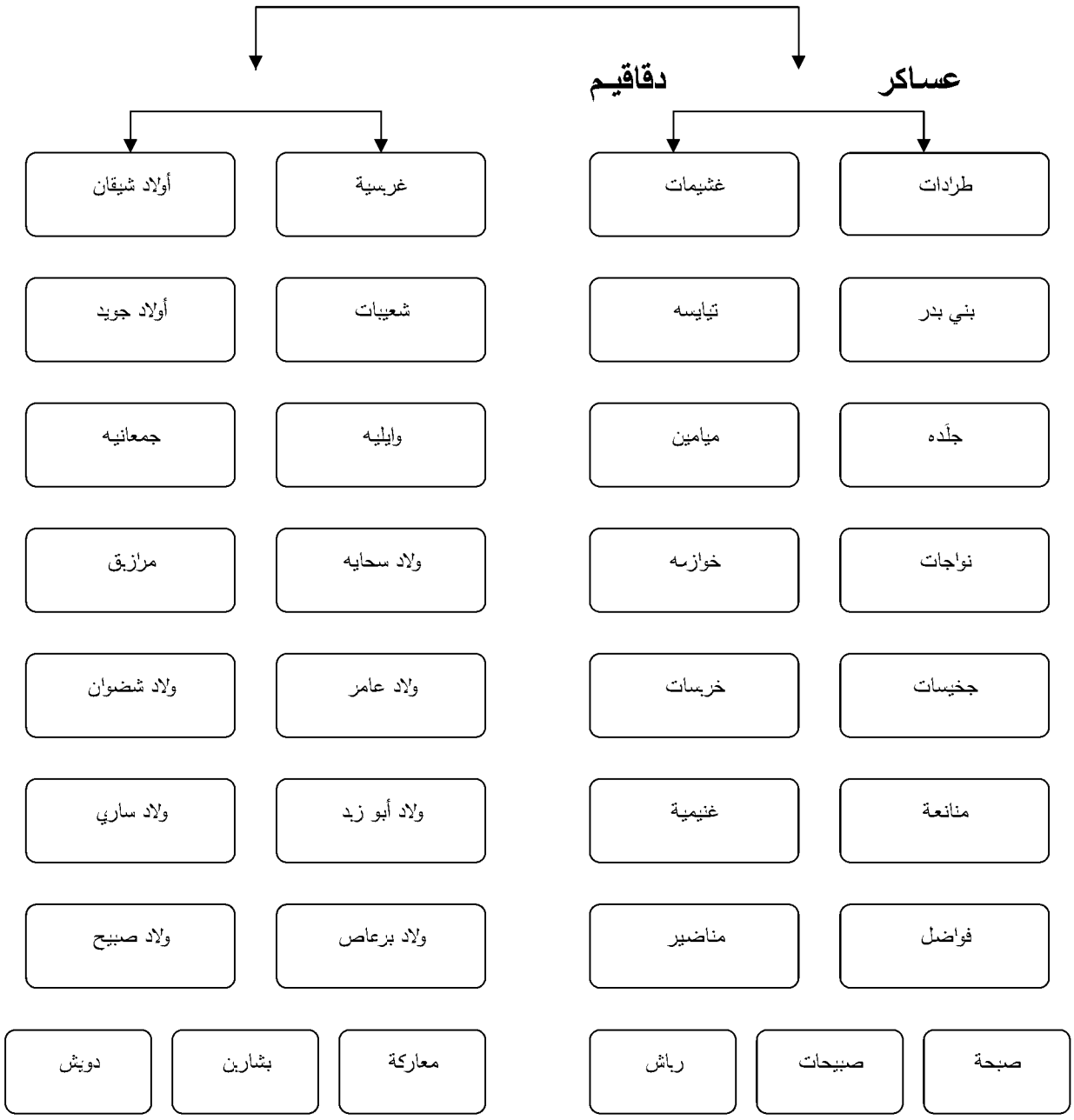
عساكر
دقاقيم
طرادات
غشيمات
غربية
أولاد شيقان
بني بدر
تيايسه
شعيبات
أولاد جويد
جلَده
ميامين
وايليه
جمعانيه
نواجات
خوازمه
ولاد سحايه
مرازيق
جخيسات
خرسات
ولاد عامر
ولاد شضوان
منانعة
غنيمية
ولاد أبو زيد
ولاد ساري
فواضل
مناضير
ولاد برعاص
ولاد صبيح
صبحة
صبيحات
رباش
معاركة
بشارين
دويش

المبحث الثاني: التاريخ السياسي لقبيلة الحمر:

لا يختلف الحمر كثيراً من المجتمعات البدوية في الجزيرة العربية، إذ تُعدُّ القبيلة هي أساس الحياة الاجتماعية والسياسية. وهي أيضاً كيان وثيق العرى يرتبط بصلات القرابة والمصاهرة والأحلاف والجوار. ويمثل الشيخ قمة القبيلة، وهو سريع الاستجابة لتلبية نداء القبيلة واستنفار أفرادها إذا حلت بها نازلة أو طرأ ما يستدعي الذَّب عن المال والعرض. ويحرص الشيخ على النأي بقبيلته من كل شنار يصمها.

ومن مهام الشيخ فضّ النزاعات بالقسطاس وبسط العدالة بين المتخاصمين ودفع الديات. بل يكون الشيخ دائماً دبيراً خبيراً بالأعراف والتقاليد، ويطمح أن تزدان عشائره برداء الفخار. وقد كان شيوخ الحمر من هذا القبيل إذ كان حسامهم المُشْرَع خلال تجوالهم وفترات استقرارهم هو الحكمة والجرأة.

لكن قد ينشب نزاع بين القبائل المتبدية لا يجدي فيه الحوار أو ضبط النفس فتيلاً. ومن ذلك الصراع بين قبيلتي الحمر والمعاليا عندما نقض المعاليا الميثاق الذي يرد الحمر بموجبه الماء في منهل منطقة القرطاس. فاندلعت حرب ضروس كان النصر فيها حليف الحمر. وعرفت تلك الواقعة بحرب القرطاس وكان ذالك في عام ١٧٦٥م.[١] ومن الحروب التي اعترك فيها الحمر مع جيرانهم الكبابيش، موقعة عقال قليعة النّحاس أو دبيبات النّحاس. وقد استعرت هذه الحرب بسبب محاولة الكبابيش السيطرة على منهل (فوجا) في منطقة الحمر. وقد تحين الحمر انشغال الكبابيش بأحد الأعياد وباغتوهم بهجوم كاسح وعندما اشتد القتال اضطر الكبابيش للانسحاب مخلفين وراءهم نحاسهم. والنحاس طبل يمتلكه قيل القبيلة يرمز لسيادته وسلطانه، ويُستغل أيضاً لإعلام الناس بما يستجد من الأمور أو يحل من الخطوب. وكان من فرسان الكبابيش الذين صمدوا لحماية الذّمار، محمد ود علي ود فحل.[٢] وقد غنم الحمر نحاس الكبابيش، وما زال موجوداً في دار أمير قبيلة الحمر وقد دمغ بوسم الحمر الذي يميزون به نَعمهم.[٣]

---

[١] مقابلة: الشيخ جبير لبن (٩٨ عاماً): قرية الوكيل، مرجع سابق.

[٢] د. نور الدائم علي رحمة (١٩٩٥): ملامح الشعر الجاهلي في الشعر الشعبي ببادية الكبابيش، رسالة دكتوراة غير منشورة، ص٩٦.

[٣] مقابلة: دوليب محمود عبد الرحيم أبو دقل، الأبيض، ٢٠٠٦/٧/١٤م. الأمير عبد القادر منعم منصور، النهود، ٢٠٠٦/٧/٢٦م.

ودارت معركة أخرى بين الحمر والكبابيش أراد الكبابيش أن يثأروا فيها ويستعيدوا نحاسهم المغضوب من غرمائهم. والتقى الجمعان شرق بلدة أم بادر في منطقة أم عضام. وحاول رجل من الكبابيش يصاهر الحمر يدعى شطيطة أبو عجوز أن يرأب الصدع ويسعى للصلح بين الفريقين إلا أن جهوده باءت بالفشل، واندلع القتال. وبعد انقضاء اليوم الخامس تقهقر الكبابيش. رغم اندحارهم فقد أظهروا بطولات فذة. ومن هؤلاء أولاد "محمد عيسى وبلو" أنجال علي ود فحل، إذ تحلقوا حول أبيهم الذي طاح في حومة الوغى متأثراً بكلومه الغائرة.[١]

الجدير بالذكر أن شيخ الحمر مكي أبو المليح كان حليماً كيّساً إذ عفا عن الذراري وردّ السبايا وجاد عليهن بالمطايا، وعدنَ إلى ربعهنّ في عزة وكرامة بصحبة كوكبة من فرسان الحمر. وسمي هذا العقال بعقال (أم رؤوس) لكثرة ما حصدته الحرب من رؤوس المحاربين والخيول،[٢] وكما سمّى العرب الأوائل وقائعهم أياماً لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً،[٣] كذلك أطلق الحمر على هذه الحرب كلمة "عقال" لأنهم كانوا يعقلون إبلهم إذا احتدم القتال حتى ترسخ أقدامهم في ساحة الحرب ولا يكون هنالك مناص لمن أراد الإدبار فالعدو أمامه والعير مغلولة القوائم خلفه ولا سراح لها.

ومن صناديد الحمر الذين شاركوا بثبات وبسالة في المعارك باختلاف أزمنتها، مكي أبو المليح، عبد الرحيم سالم أبو دقل، بكر ود حمدوك، قريب ود مورو وبليلة درب التّج.[٤]

وفي عهد التركية التي بسطت نفوذها على السودان جأر الحمر – كغيرهم من القبائل– بالشكوى من الضرائب الباهظة التي فرضت عليهم وأرهقت كاهلهم، لذا عندما اندلعت الثورة المهدية، كان الحمر في طليعة مناصريها. وقد تمت مبايعة زعيم الحمر– المكي ود إبراهيم– للإمام المهدي في يوم ١٨٨٢/٣/٣م، في ناحية جبل ماسا، ونصبه المهدي أميراً على أهله وأمره بالرجوع إليهم. ونصّب في الوقت نفسه مادبو أميراً على الرزيقات وعبد الصمد أبو صفية أميراً على البديرية ونواي أميراً على الحوازمة.[٥]

---

[١] نور الدائم علي رحمة: مرجع سابق.

[٢] المرجع نفسه.

[٣] شوقي ضيف (١٩٨٠): العصر الجاهلي، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص٦٧.

[٤] مقابلة: الشيخ جبير لبن: مرجع سابق.

[٥] تاريخ كردفان السياسي في المهدية من ١٨٨١ إلى ١٨٩٩م، ص١٣.

آب الشيخ مكي ود إبراهيم إلى قومه وشرع يبث دعوة المهدية بينهم، فلاقت قبولاً حسناً في نفوسهم. وصادفت تلك الأيام مرور البكباشي التركي نظيم باشا ليجمع الضرائب من الأهالي في منطقة "أم جقرو"في مشارف بلدة أبي زيد بدار حمر. فثار الأهالي عليه ومزقوا سجلاته وأعلنوا العصيان. وفي الوقت نفسه حذا حذوهم أهالي منطقة أبي حراز من قبيلة البديرية، إذ ثاروا على – ناظر الخط- محمد أغا رحمة. فهبت نجدة من الأبيض لمساعدته. إزاء ذلك تجمع الحمر بقيادة مكي ود إبراهيم وعربان البديرية يتزعمهم عبد الصمد ود أبو صفية وتصدوا لجند الحكومة في معركة "المشقة" واندحر الترك على أعقابهم خاسرين.[١] وهكذا انضوى الحمر تحت لواء المهدية. فهاجم مكي ود إبراهيم مع عربان الجوامعة والبديرية نقطة إسق قرب باره وألحقوا الهزيمة بقوات الحكومة التي يقودها رجل يدعى عثمان. وبعدما استولى المنا إسماعيل شيخ الجوامعة على بلدة الطيارة في ١٨٨٢/٨/٦م أطبقت جيوش المهدية الحصار على بارا وكان من أبرز قادتهم في تلك الواقعة عبد الله ولد النور ومحمد ولد أبو كندي ومكي ولد إبراهيم شيخ الحمر. وقد أسهم هؤلاء جميعاً في حصار الأبيض.[٢]

وشارك الحمر ببسالة في معركة شيكان التي قصمت ظهر البغاة. وهنالك موقف مشهود لأحد كماة الحمر سجله التاريخ في صفحة من النّضار.[٣] واسم هذا الكمي أحمد عوجة. فلما تقاطرت جموع الأنصار من كل حدب وصوب محاصرة جيش هكس باشا، اختلط الحابل بالنابل، تسلل أحمد عوجة خلسة نحو دوحة التبلدي الوريفة التي يستظل تحتها هكس. ومن بين أغصانها الكثّة عاجله من علٍ برمح نافذٍ شك فؤاده.

فلما انجلت المعركة وتفقد المهدي أنصاره، وعلم بإقدام أحمد عوجة وتضحيته، قال له: أنت لست أحمد عوجة بل أنت أحمد عديل.[٤] ويذكرني هذا الموقف بقصة زيد الخيل بن المهلهل – ذلك الصحابي المقدام- عندما زار النبي صلى الله عليه وسلم- معلناً إسلامه بحضرته فقال: أنا زيد الخيل. فردّ النبي صلى الله عليه وسلم: بل أنت زيد الخير.[٥]

---

[١] تاريخ كرنفان السياسي في المهدية: مرجع سابق، ص١٣-٢٠.

[٢] المرجع نفسه، ص١٣-٢٠.

[٣] المرجع نفسه.

[٤] مقابلة:الأستاذ يوسف ماكن مفرح (٨٠ عاماً) كبير موجهي مادة التاريخ "بالمعاش" إدارة التعليم بولاية شمال كردفان في ٢٠٠٥/٦/١٥م.

[٥] صور من حياة الصحابة: ٩٨.

دارت الأيام واستقر أحمد عديل في بلدة أبي زبد. ومن أحفاده وأنجاله، الشرتاية حسن أحمد عديل وقطب حزب الأمة اللامع بكري أحمد عديل.[١]

وشكّل أبطال الحمر قوة ضاربة في جيش المهدي. ومن الذين قادوا الفيالق الزاكي طمل وحمدان أبو عنجة اللذان كان لهما دور بارز في دحر الأحابيش في القلابات وأرسل المهدي أبا عنجة للنوبة ليعلمهم الإسلام. ويقطن بعض أحفاده في مناطق "أم حوش" و"شَقْ أبو عنجة" و"تلب" و"غبيش" بغرب كردفان.[٢] وخاض الزعيم عبد الرحيم أبو دقل جُلّ المعارك مع المهديّ والخليفة عبد الله التعايشي.[٣]

لكن بعد سقوط الأبيض، ظل في كردفان من القيادات الإدارية لحمر، إبراهيم بك المليح زعيم العساكر وحمد فتين زعيم الدقاقيم. وكانا يقومان برعاية مصالح القبيلة والأسر التي نفر أربابها للجهاد في سبيل الله. وقد حرص شيوخ الحمر على الدفاع عن قبيلتهم وحماية أراضيها.[٤] فبُعَيْد انتهاء معركتي كرري وأم دبيكرات والجلاء من أم درمان، بدرت بعض مظاهر الفوضى من الجهادية. من ذلك ماقام به بعض جهادية الرزيقات من إغارة على القرى في بعض مناطق الحمر أثناء عبورهم إياها في طريق عودتهم إلى بلادهم في الغرب الأقصى[٥]. وانبرى لهم الحمر وحلفاؤهم من القبائل العربية المقيمة هناك في معركة "رهد أم رقتي" بين مدينتي النهود وأبي زبد، وتمكنوا من صدّهم وحماية حدودهم الجنوبية الشرقية.[٦]

وعند تطبيق نظام الإدارة الأهلية في عهد الاستعمار والحقب التي تلته كان زعماء الحمر مثالاً يحتذى في الأداء وكانوا حلقة وصل تربط بين رعاياهم وأجهزة الدولة. ومن أبرز هؤلاء الزعماء عبد الرحيم أبو دقل ومحمد أبو جلوف ومنعم منصور وخلفه ابنه منصور ثم عبد القادر الذي قد أسبقت عليه الدولة لقب "أمير الأمراء" لفرط نشاطه وتميزه في إنجاز المهام المنوطة به.

---

[١] مقابلة: الأستاذ يوسف ماكن: مرجع سابق.

[٢] مقابلة: الدكتور فضل عبد الهادي حمد- أستاذ مساعد- جامعة غرب كردفان.

[٣] مقابلة: دوليب محمود عبد الرحيم أبو دقل، ٢٠٠٦/٧/١٤م، مرجع سابق.

[٤] المرجع نفسه.

[٥] جغرافية وتاريخ السودان: مرجع سابق.

[٦] مقابلة: الشيخ علي زكي شيخ قرية أم رقتي الصبيحات (٩٥ عاماً) في ١٩٩٢/٢/١٥م.

المبحث الثالث: لمحات تراثية من بيئة الحمر:

العادات والتقاليد لكل شعب وأمة لا ينبغي إغفالها لأنّها تؤرخ الإرث الاجتماعي للمجموعات البشرية على مدى العصور. ولا شكّ أنّها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات والثقافات في الحقب الزمنية المختلفة.

تزفين الأطفال عادةٌ مألوفةٌ عند العرب وغيرهم من الأمم إذ ترأم الأم وليدها وترقّصه في حنو بأراجيز قصيرة. ومن أغاني تزفين الأطفال التي تُردد في بيئة الحمر قول الأم مدندنةً:

دوها يا دوها

بير زمزم قدوها

الحجاج شربوها

والأرجوزة عينها سائدة في بلاد العرب إذ سمعتها في عرض إعلامي بتلفاز مدينة الرياض للترويج لبعض السلع التي يولع الصغار بها.[1]

ومن ألعاب الصبية في ديار حمر وكثير من بلاد السودان لعبة (الشل) وتصغّر (شليل) حيث يقذف الصبية عظماً في ساحة اللعب في الليلة المقمرة ثم يدأبون في البحث عنه. ومن يهتدي إليه يعد فائزاً بقصب السبق. وهذه اللعبة تسميها العرب (عظم وضّاح). وقد ورد في لسان العرب قول الأصمعي: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلعب- وهو صغير- مع الغلمان بعظم وضّاح، وهي لعبة صبيان الأعراب. كانوا يعمدون إلى عظم أبيض ويرمونه في ظلمة الليل، ثم يتفرقون في طلبه، فمن وجده فله القمر.[2] ورأيت الصبيان يصغّرونه فيقولون: عظيم وضّاح. وأنشدني بعضهم:

عظيم وضّاح صخنَّ الليلة ولا تصخنَّ بعدها ليلة

وقول الصَّبي صَخنَّ من "وضح" وهي صيغة الأمر المؤكد من الفعل المذكور، كقولك: صَلنَّ الرحم من الفعل "وصل".

لعبة "مددين- مددين، ست الحجلين" التي يزاولها الصبية في ديار الحمر والعديد من مناطق السودان، هي من ضروب اللهو الذي يتسلّى به نشء العرب في الصغر، وتسمى عندهم

---

[1] ملاحظة: برنامج تلفزيوني، الرياض، السعودية، ٢٠٠٢/٨/٢م

[2] لسان العرب: مرجع سابق، ج١٥، ص٢٢٩. مادة "وضح".

"مداد قيس" [١] أما لعبة الخذروف العربية وتسمى في بيئات الحمر وكردفان "الفرنانة"[٢]، ويطلق عليها في مناطق السودان الأخرى "الزنّانة" أو "الفنّانة"[٣]. وصفتها أن تثقب قطعة مستديرة من الفزع أو الخزف ونحوهما ثقبتين وفي وسطهما يُجعل خيطان يلتقي طرافهما ببعضهما، فيمسك الصبي بنهاية الخيطين ويدوّرهما فيُسمع منهما أزيزٌ كأزيز سرب اليعاسيب الثائرة. وقد استوحى أمرؤ القيس هذه الصورة في وصف فرسه حين قال:

دريرٌ كخُذْرُوفِ الوَليد أمرّه

تتابع كفيه بخيط مُوصَّلِ[٤]

قال صاحب الدُرّة الفاخرة: الخذروف هو الخرّارة التي يلعب بها الصبيان. ويُضرب به المثل في السرعة فيقال: أسرع من خذروف. والخذروف في اللغة، الرجل السريع في مشيته.[٥]

ومن الألاعيب التي يتوق الصِّبية لممارستها تلك التي يطلق عليها في بيئات كردفان "أبو مالك". وفحواها أن الطفل يُسجي مستلقياً على ظهره، ويهال عليه الرمل خلا رأسه إذ يظل منتصباً. ثُم يقول له لداته: "أبو مالك إتّا حي ولا هالك". فينهض الطفل عند سماع ذلك الحديث ليظهر قوة احتماله. ويسمي سكان وسط السودان هذه اللعبة "أبو مليك".[٦] ومالك ضرب من الرّمل ويتسلّى بهذه اللعبة يُفع بداة جزيرة العرب.[٧]

ومن الاعتقادات السائدة لدى العرب قديماً وكذلك في بيئات الحمر والبقارة، بل وجل مناطق السودان الشمالي أن الصّبي إذا أثغر يقذف سنه صوب عين الشمس داعياً: "يا عين الشمس خذي سن الحمار واعطني سن الغزال"[٨] ويزعمون بذلك أن أسنانه تنبت حسنة بيضاء دون عوجٍ أو نغل[٩] أو فلج. وعلى هذا قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد البكري في وصف غيداء بهره حسنها:

بَدّلَتُه الشَّمْسُ مِنْ مَنَابِته بَرْداً أبْيَضَ مَصْقول الأُشر

---

[١] لسان العرب، ١٤/٣٨.

[٢] القاموس المحيط، ٣/١٣١.

[٣] الضرير، عبد الله عبد الرحمن الأمين:العربية في السودان، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

[٤] أمرؤ القيس بن حجر الكندي (د ت): ديوان أمرئ القيس، دار صادر، بيروت، لبنان، ص٥٥.

[٥] الأصفهاني، حمزة بن الحسن: الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ت. عبد المجيد قطامش، ج١، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٢٢٠.

[٦] رواية الدكتور إبراهيم القرشي عثمان، الرياض، ١٩٩٨/٤/٢م.

[٧] لسان العرب، ج١٤، ص١٢٨.

[٨] العربية في السودان: مرجع سابق، ج١، ص٤٦.

[٩] نغل: فساد. الصحاح، ج٥، ص١٨٣٢، مادة نَغِل.

ومما يشيع من المعتقدات العربية القديمة في أرياف الحمر وبوادي السودان أن في الإعصار شيطاناً يثير زوبعته. لذا يردد أولئك القوم في السّودان عبارة: "مَحُمَّد معَانا ما تغشانا" كلما لمحوا الإعصار هائجاً. ومن الأوهام التي تدور في أذهانهم أن الشياطين والعفاريت توقد بالليل ناراً تضلل بها من يضرب في المغاور. وكان أسلافهم العرب في الزمان الغابر يسمونها "نار السعالي"[١] لأن وميضها يخدع الركبان فتتشعب بهم السبل في ظلماء التيه.

والخَدَرُ معروف نوع من الإمذال يغشى عضو الإنسان من فرط السكون وعدم الحركة. والحمر وكثير من أهل السّودان يزعمون أن من خدرت رجله أو يده، يزول الخدر إذا ربّت على العضو شخص بكر. وأن مَنْ رَفّ جفنه الأسفل يبكِ ومَنْ رَفّ جفنه الأعلى يستبشر خيراً أو يرَ حِبّاً. وتلك من مزاعم العرب الأقدمين إذ يقول شاعرهم:[٢]

إذا اختلجت عيني رأتْ من تحبه

فدام لعيني ما حييت اختلاجُها

ومن العادات العربية القديمة لدى الحمر وأهل كردفان ربط عقود الخرز والرعاث[٣] في العضو المصاب للشخص السليم، أي الذي لدغته حية. وقد سُمّي المنهوش كذلك تفاؤلاً ببلوغه البرء والسلامة.[٤] وتجتمع حوادي الحي في داره ويسمرن بالغناء تسهيداً له كي يتسلى باللهو ويظل يقظاً درءاً لأذى السم الزعاف كي لا ينفذ إلى أغشية العين الرقيقة فيعطبها أثناء الاستغراق في النوم. وقريض النابغة يصور لنا ماسبق ذكره، إذ يقول:

فبتُّ كأنّما ساورتني ضئيلةٌ

من الرُّقشِ في أنْيابِها السُّمُّ ناقعُ

يُسهَّد من ليلٍ التّمامِ سليمُها

لحلي النساءِ في يديه قعاقعُ[٥]

وهنالك تقليد عربي عريق ما زال مألوفاً لدى بدو كردفان، إذ يربطون سبباً رفيعاً أو خيطاً على مرفق المسافر كي يستحضر الوصايا التي عهدوا بها إليه حين أوبته. والعرب تفعل

---

[١] العربية في السودان، مرجع سابق، ج١، ص٤٩.

[٢] المرجع نفسه، ص٥١.

[٣] جمع رعثة وهي الأقراط والقلائد، أساس البلاغة ٢٣٦.

[٤] الجوهريّ، إسماعيل بن حماد (١٩٨٤م): الصحاح، ت. أحمد عبد الغفور عطار، ج٥، دار العلم للملايين، بيروت، ص١٩٥٢. مادة "سلم".

[٥] العربية في السودان، مرجع سابق، ج١٠، ص١٣. النابغة الذبياني (١٩٨٤م): ديوان النابغة الذبياني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥٤.

ذلك وتسمّي هذا الخيط: الرّتمة والرّتيمة.[١] وورد في في الصحاح: هو خيط يُشد به الأصبع لتُستذكر به الحاجة.[٢] قال ابن بري: قال علي بن حمزة: الرّتمة هي الرَّتيمة، وجمعها رَتَم ورتائم ورِتام. قال الشاعر:

إذا لم تكنْ حاجتنا في نفوسكم

فليس بمغنٍ عنك عقدُ الرتائم[٣]

وتستعطر النساء في بلاد الحمر بَلْ وجُلَّ مناطق السودان – من بدو وحاضرة– بدخان الزكينة الذي يعبّق الأبدان والأردان. ويصفِّر البشرة ويكسبها بريقاً. وقد افتتن في سالف العهد، الشاعر كُثير عزة بهذا الحمّام البخاري الذي يضوع نشره ويضفي على البشرة رونقاً وطلاوة[٤] فقال:

فما روْضَةٌ بالحَزْنِ بَاكَرها النَّدَى

يَمُجُّ الثرى جَثْجَاثَها[٥] وعَرارَها

بأطيبَ من أردان عزة مَوْهِفاً

إذا أوقدتْ بالمندلِ الرّطب نارها

والحمر يتخذون أطباقهم من النبات كسعف شجر الدوم، منها المستدير والمخروطي، بيد أن العرب كانت تتخذ أطباقها من نبات يسمى "النِّمصْ".[٦] ومن الأوعية المستعملة عن الحمر بأسمائها العربية: العِديل "بإمالة صغرى" وهو إناء كالزكيبة. والكلمة مصغرة من عِدْل، وهي فصيحة، وقد فصّل القول في ذلك صاحب اللسان: العِدل لا يكون إلا في المتاع أمّا العَدِيل فهو النّظير والمثيل، وهو مَنْ عادلك من النّاس.[٧] وأيضاً من تلك الأوعية: الباطية وهي جذع دوحة مجوّف والقدح والخريطة والمحارة (تلك الصّدفة التي يغرف بها الإدام واللّبن) [٨] و القحف وهو شطر الجرة المهشمة ويُسكب فيه اللّبن للجراء والسنانير. القحف أيضاً لدى

---

[١] لسان العرب: مرجع سابق، ج٦، ص٩٦، مادة رَتَم.

[٢] الصحاح للجوهري، مرجع سابق، ح٥، ص١٩٢٧، مادة رَتَم.

[٣] لسان العرب: مرجع سابق، ج٦، ص٩٦، مادة رَتَم. الصحاح للجوهري، مرجع سابق، ح٥، ص١٩٢٧، مادة رَتَم.

[٤] عادات سودانية أصولها عربية، ص١٥.

[٥] نوع من النبات. الصحاح ج، ص٢٧٧. مادة "جثث".

[٦] القاموس المحيط، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٠.

[٧] لسان العرب، مرجع سابق، ج١٠، ص٦٢. مادة "عدل".

[٨] المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٧. مادة "عدل".

العرب إناء من خشب كأنه نصف القدح يعطن فيه دواء الإبل.[١] غير أن الحمر ينطقون المخلاة (المخلاية)، بإضافة اللاحقة الحامية "آية".

إنّ الظروف البيئية عامل مؤثر فيما يرتديه الناس من أزياء. والقبائل العربية النازحة بالرغم من انتجاعها أرض السودان ذات المناخ الذي يختلف عن موطنها إلا أنّها حافظت على سرابيلها المعهودة. ومن تلك الأزياء لدى الحمر وكثير من بداة السُّودان "الرهط"، وهو نُقبة من جلد أحمر ذي سيور مشققة ليس له حُجزة ولا ساقان، يُشدُّ كما يُشدُّ السراويل، تلبسه الجواري قبل إدراكهن. فإذا أدركن أو زُوّجن خلعنه. وأمّا الراشدات من النساء فيئتزرنَ بمرُط يُسدل حتى يقارب الكعبين ويَسْبلنَ على الجسد العلوي دِثاراً سابغاً.

أمّا الهوادج فهي من أهم لوازم الظعائن عند بداة الحمر. وهم ينصبونها يوم الرحيل عند اجتياز الفلوات الشاسعة في زرافاتٍ طلباً للكلأ في كل حَزْن وسهل. وأصدق ما يُصّوِر ذلك ما دبَّجه الشاعر المبدع طرفة بن العبد في قوله:

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ[٢]

يستخدم الحمر وجل بدو السودان الوسم– كسائر بدو الجزيرة العربية– لتمييز نعمهم إذا ضلّت طريقها، أو اختلطت مع قطيع آخر، أو إذا انتحى بها لصٌّ في مكان قاصٍ. ونقول في اللّغة: وسَمْتُه وسماً وسمة إذا أثّرتَ فيه بسِمة وكي. والهاء في سِمة عوض عن الواو.[٣]

والخضرمة وهي قطع أذن بهيمة الأنعام بطريقة معينة – وهي من عادات عرب الجاهلية– يستعين بها أيضاً بدو الحمر كعلامة فارقة كالوسم تماماً[٤]. وقد لوحظ أنّ وسم بني عطية بجزيرة العرب وهو في شكل الحرف الإنجليزي (y) مطابق لوسم العطاوية بكردفان.[٥] ومن أشكال الوسم لبعض بطون الحمر "القلادة" للغريسيّة و"السوط" في اليد للجمعانيّة و"السوط" في الورك للوايلية و"الضلعة" للغشيمات و"الشحمة" لبني بدر.[٦]

وهنالك ظاهرة اجتماعية سبق أن سادت في المجتمع العربيّ في العصر الجاهليّ وما زالت جذورها ضاربة في الإيغال لدى بدو السودان. فظاهرة الهنباتة – وهي فئة من اللصوص

---

[١] لسان العرب، مرجع سابق، ج١٢، ص٣٠، "مادة قحف".

[٢] ديوان طرفة، مرجع سابق، ص٢٠.

[٣] القاموس المحيط: مرجع سابق، ج٥، ص٢٠٥١، مادة "وسم".

[٤] لسان العرب: مرجع سابق، ج٥، ص٩١، مادة "خضرم".

[٥] هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل، ص٤٧٦.

[٦] الشيخ جبير لبن، قرية الوكيل، مصدر سابق.

الذين يضربون في الفلوات لسرقة الأنعام- تماثلها في نظري طائفة الصعاليك وهم لصوص استهوتهم حياة البر مع الآرام والوحوش.

ومنهم أيضاً الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم لكثرة جرائرهم وجناياتهم، فأضحوا يجوبون قفاراً موحشة لا يُسمع فيها إلا وجيب القلب وعواء الذئب[١]. ومن هؤلاء الصعاليك ثلة عرفت بعدائي العرب ويسابقون الريح من فرط سرعتهم، أمثال: عمرو بن براق[٢] والشنفري الأزدي والسّليك بن السلكة. وقد نسب الأخير هذا إلى أمه وهي حبشية وهو تميميّ ينتسب لبني سعد. ومن هؤلاء الصعاليك من كان يظل في قبيلته لفضلٍ فيه مثل عروة بن الورد[٣]، وكان كريماً فياضاً، وأثر عنه أنّه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته بني عبس ومعوزيها ومرضاها متخذا لهم حظائر يأوون فيها، قاسماً بينه وبينهم مغانمه. وللصعاليك عموماً مروءة تتمثل في الكرم والحلم والوفاء وحماية الجار والغضّ عن العوراء. وكثير من هذه الخصال نحدها عند الهنباتة في مناطق كردفان عامة ودار حمر خاصة، إذ يؤمون بعد المغنم الحانات التي تسمى (الأنادي). فيذبحون الذبائح ويغدغون الأموال على الرفاق والندماء والمعوزين. ويفخرون بمغامراتهم وغاراتهم.

ومن الهنباتة الذين ذاع صيتهم في دار حمَر ولهم صولات وجولات، حامد ود كدومة وإدريس ود آدم المشهور بلقب (أبي سريج). ولذؤبان الصحراء[٤] هؤلاء -كما تسميهم العرب- موقف عالق بذاكرتي. فقد زارنا أحدهم زورة تشبه بالفعل زورة الذئب المستطلع.

فكنت أقيم مع جدتي وأنا صبي في سهل قرب قرية خمّاس حلاّب [٥] بكردفان ، نتفيأ ظلال دوحة تبلدي وارفة نصبنا خيمتنا تحتها، وقد كان الوقت أصيلاً ونحن نتطلّع لصدر النّعم التي باكرت المنهل لتطفئ غلها. وفجأة لاح لي من بُعد شبح يسرع الخطا نحونا. وبعد برهة تبينته، فإذا هو فتى يعتلي متن ناجٍ[١] مشمعل من الإبل كأنه شجرة بان في سموقه. ثم ترجّل ذلك الغريب وقد كان وسيماً قسيماً حنطي البشرة تبدو عليه سيماء الشجاعة وقوة الشكيمة.

---

[١] العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦٧.

[٢] الأصبهاني: الإمام حمزة بن الحسن الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق عبد المجيد القطامش، دارالمعارف، مصر، ج١، ص٣٠٦.

[٣] العصر الجاهليّ، مرجع سابق، ص٦٨.

[٤] العصر الجاهليّ، مرجع سابق، ٦٧.

[٥] تقع شرق دار حَمَر.

[١] السريع الذي ينجو بمن ركبه. مشمعل: طويل.

فخلعت جدتي حذاءها توقيراً واحتراماً له كعادة أهل البادية هناك، وسلّمت عليه. وعندما رجعت إلى الخيمة، همست لي قائلة: هذا الهنباتي العطا ود حليلات. وأكرمت جدتي وفادته بما لديها من مخيض وإقط ، ثم انصرف لشأنه.

تصرّمت الأيام، وبعد ثلاثة عقود كنت في سفرة صوب مدينة النهود حيث توقفت المركبة التي تقلنا عند مخفر الشرطة بغرض فحص سجلات السير. وقد كانت المفاجأة! يا للهول! رجل كهل وخطه الشيب يرسف في أغلاله لاتهامه في جرم سرقة، استرجعت ملامحه في ذاكرتي، وصدق حدسي إنّه العطا ود حليلات.

وفي ختام هذا المبحث وبنظرة فاحصة لهذه العادات والتقاليد التي بسطتها تتبدّى لنا خلال أصيلة لهذه القبيلة الجهنية –أي الحَمَر– مما يسوّغ لنا أنْ نجزم بأنّها قد نزحت من مواطنها في عهد قريب واستقرت في ربوع السودان الخصيبة.